

النيث في العرس

الرويني

الأستاذ عبدالحق فاضل - الدار البيضاء

العدد من الثلاثة الى العشرة ، فقالوا مثلا : (سبعة) رجال ، بدلا من : سبع رجال .

ولا يحق لنا التعادي أكثر من هذا في عرض رأي الباحث المستشرق اعتمادا على الذاكرة بعد هذا الإمد المتطاول ، مخافة ان نظلم الرجل فنمزو اليه ما نتوهم انه قاله وهو لم يقله ، او قاله على نحو آخر . لكننا نذكر اننا حين قرأنا ذلك البحث لم نعتنع بتأويلانه ولو اننا تقبلناه على انه مقال طريف ومحاولة جريئة لتفسير ظاهرة لغوية غريبة ، من زاوية جديدة .

أما بصدد النقطة الاولى فان الكثير من أسماء الجمادات لا يخضع للقاعدة المذكورة فقد وردت في العربية مؤنثات من الجمادات لا مشابهة لها بالانوثة كالمصا والفاس والذراع ، ومذكرات لا شبه لها بالذكورة كالوادي والغار ، والجب المرادف للبئر المؤنثة .

وأما بصدد النقطة الثانية ماذا اعتبرنا التانيث في بعض الحالات تكريبا للمرأة حيث قيل سبعة رجال فان الباحث لم يذكر لهما نظن ان اسم العدد يذكر أيضا مع المؤنث - مما يقلل هيئة المرأة ويفل من سطوتها - ليقال (سبع) نساء ، بدلا من سبعة نساء . ولعل المستشرق الفاضل قد ذكر ذلك وفسره بطريقة لم نتعمنا على كل حال .

قرأت منذ أكثر من عشرين عاما - في مطبوع ما ، لعله مجلة غاب عن بالي عنوانها - لمستشرق نسبت اسمها - بحثا شائقا حاول فيه تفسير ظاهرة التانيث في لغتنا بما فيها من غرابة ومفارقات . والذي تستطيع الذاكرة ان تستعيده الآن من ذلك البحث هو التفتتان الاساسيتان اللتان عليهما كان مدار الموضوع .

النقطة الاولى قوله ان العرب انثوا من الجمادات ما هو شبيه بالانوثة مما كان مثقوبا او هيقا او موطوا او نحو ذلك ، كالرحي والبئر والارض . وبوسعنا جريا على هذه النظرية ان نضيف الى ذلك من الجمادات المؤنثة التي تشبه المرأة ما كان ساميا كالسما ، وهاجا كالشمس ، ومقلبا كالريح ، ومحرقا كالجحيم ، ومدبرا كال حرب ..

والنقطة الثانية قوله ان العرب كانوا قد مروا في احد عهودهم القديس بمرحلة الامومة كغيرهم من الامم ، اي مرحلة سيادة المرأة الام على العائلة قبل الانتقال الى مرحلة الابوة اي سيادة الرجل الاب . ويخيل لي ان المستشرق قد استشهد على رايه هذا بنبذة من كلام هيرودتس عن علاقة مغايرة للبالوف الحديث كانت على عهد قائمة بين الرجل والمرأة ، لدى بعض العرب ، ولا نعتب ان ذلك الاستشهاد كان وائيا بمرامه لانه لا يدل على سيادة المرأة فيها نذكر . وعلى أية حال كان من تاثير سيطرة الانثى الام ، على قوله ، ان العرب انثوا الكثير من أسماء الاشياء غير المؤنثة ، حتى من الذكور البشر ، كتانيث اسم

ولاندري الآن ما اذا كان قد فاته كذلك ان الجمادات
تؤنث وتذكر في اللاتينية وبناتها . فهل نمزو ذلك
الى مشابهة المسيمات للذكورة والانوثة او الى سيطرة
الام على الرومان قبل ان تتوطد لديهم سيطرة الاب
ايضا ؟

اشارة ، فمن العائهم الهزة بها مفتوحة ومضمومة
ومكسورة نشأت حركات الازراب ، ومن الحاق النون
بها نشأ التنوين بمختلف حالاته .

التاء :

والذي يهديننا اليه استعراض الضمائر العربية
في شتى احوالها وصورها هو ان هذه العناصر
الضميرية البدائية الثلاثة لم تنشأ في مكان واحد عند
تفريق معين من الازرابين (العرب الاوائل) ، بل ان
كل طائفة منهم كانت تستعمل واحدا من هذه الضمائر.
تفريق منهم كانوا يستعملون ضمير (تا) كما كان تفريق
ثان يستعملون ضمير (آ) وتفريق ثالث ضمير (نا)
كالذي فصناه وعلناه في كتابنا الإنف الذكر ، فلا حاجة
للامادة فيه هنا .

وهكذا كان نصيب التاء ان الحقوا كأخويها
الضميرين الآخرين بالاسماء والافعال . وهذا هو سر
وجود التاء في بعض الاسماء مثل : جبهة ، هضبة ،
اجمة ، مقدرة ، خشية .

فليس التانيث هو الغرض من التاء في أسماء هذه
الاشياء المجردة من اي اثر لاي تانيث او تذكير ، وانما
التاء هنا مجرد بقية أثرية من عهد لغوي مندرس بميد
كانوا فيه يلحون بها بكل الاسماء والافعال .

وقد كان من نتيجة اختلاط التقبيل الذين يستعملون
التاء بغيرهم من الازرابين الذين لا يستعملونها ان
ضعف شأنها وتقل استعمالها حتى انها سقطت من كثير
من الافعال مثل : اعمل ونعمل ويفعلون ، ومن معظم
الاسماء مثل : جبل ، طير ، نهر ، أرض ، كوكب ،
تراب ، بحر ... وبقية عالقة باسماء أخرى كالتسي
ذكرناها : هضبة ، جبهة ، الخ ... وبقية متأرجحة في
اسماء أخرى حيث يمكن حذفها وإثباتها في مثل : ليل
ونجم .

فلنا ان التاء الحقوا بالاسماء والافعال لاداء
معنى الضمائر او أسماء الاشارة اول الامر ، لكن
تطاول الاحتباب وتعاقب الاجيال جعلها تظهر أولا في
صور مختلفة بسبب اختلاف القوم في نطقها كما قلنا ،

ويلاحظ ان اسم الجباد الخلو (1) في اللاتينيات
اما مذكر فقط واما مؤنث فقط . واما في العربية لسان
الكثير من أسماء الاخلاء يجوز فيها التذكير والتانيث .
فهذا يصف رأي المستشرق الباحث في قوله ان لشابهة
الاشياء بالانوثة علاقة بالمسالة . ولو نحن مضينا في
التطبيق قياسا على نظريته لقلنا ان جواز التذكير
والتانيث في الكثير من أسماء الاخلاء في العربية يدل
على مرور العرب بعهد سادت فيه الخنثى على العائلة .

قبل الادلاء برائنا في تفسير ظاهرة التانيث
يطالبنا الإنصاف ان نحى هذا الجهد المخلص الذي
انقعه الفضال المستشرق — المجهول لدينا في الوقت
الحاضر ، وقد نهتدي الى معرفة اسمه ذات يوم —
نحو وامثاله من الباحثين الاجانب ، الذين قاموا بعملية
استكشاف واسعة المجال في قارة التراث العربي ومنه
تراث اللغة ، قد اسدوا الى العربية خدمات قيصة
مشكورة ، ولا عتب عليهم ان اخطاوا احيانا ، فان لهم
الفضل انهم اسابوا احيانا كثيرة أخرى .

الضمائر العربية :

اذا حللنا الضمائر العربية — انا ، انت ، هو ..
الخ — نجد انها تتألف من ثلاثة عناصر اساسية : الالف
والنون والتاء . وقد تطرقتنا في كتابنا « مخاضات لغوية »
(في فصل اسرار الضمائر) (2) بشيء من التفصيل الى
هذه العناصر الضميرية الثلاثة التي نطقها الانسان
الاقدم (آ) و (نا) و (وسا) اول الامر ، ثم
تطورت لتتعدد صيغها وتنوعت معانيها ، اي ان
الاقدمين كانوا يفتخرون في نطق هذه الضمائر المنشآت
لها صيغ كثيرة ، وكانوا لفرهم اللغوي يستعملون كلا
من تلك الصيغ في مختلف المعاني التي يتوقون اليها
الانصاح عنها ولا يجدون الالفاظ المعبرة عن كل منها .
وكانوا يلحون هذه العناصر البدائية الثلاثة
(آ ، نا ، تا) بالاسماء والافعال كضمائر او أسماء

(1) نستعمل كلمة الخلو — زنة الصنو والشلو — بمعنى الشيء الخالي من الانوثة والذكورة . وموطنها :

(2) وفي مجلة « اللسان العربي » العدد الخامس ، لسنة 1967 .

وتؤدي ثانيا أفراسا مختلفة بسبب الفقر اللغوي الذي المعنا اليه. ما اضطرهم الى استعمال الكلمة الواحدة في اكثر من معنى واحد .

ومن اختلاف الطوائف الازرية في نطقها نجدها في لغتنا مضمومة ومفتوحة ومكسورة وساكنة . ومن بقايا استعمالها بمعنى مختلف الضمائر سوف يستغرب القارئ ان نقول له ان (تو) ما زالت تعني أنسا بالبرية ، وأن (تا) تعني أنت المخاطب ، و (تي) تعني أنت المخاطبة ، و (ات) تعني هي . لكننا نجد هذا كله جليا مدهشا في الفعل الماضي ، فالتاء المضمومة تعني أنا في فعلت (= فعل + تو) ، والمفتوحة تعني أنت في : فعلت (= فعل + تا) ، والمكسورة تعني أنت في : فعلت (= فعل + تي) ، والساكنة تعني هي في : فعلت (= فعل + ات) . وهذه الصيغة الأخيرة (ات) قد ذابت همزتها كما تذوب همزة في كثير من الحالات التي سميت فيها همزة وصل .

وظائف التاء :

أوضحنا في كتابنا المذكور كيف تفقد الضمائر أحيانا وظائفها أي معانيها ، أو تعاض منها وظائف أخرى . وقد كان شأن التاء في هذا شأن غيرها من الضمائر فقد تقلبت عليها أحداث لغوية أهدتها وظيفتها أحيانا وأبدلتها بها وظائف أخرى أحيانا أخرى ، في ظروف تطورية مثيرة ، نجملها فيما يلي :

أولا : فقدت التاء وظيفتها تماما في بعض الأسماء مثل : نجمة وضلعة وماءة - فيجوز لك حذف التاء من هذه الأسماء فتقول : نجم وضلوع وماء ، بنفس المعنى . أي ان التاء هنا لم تستطع ان تجد لها وظيفة ما أو تخصص بحالة معينة تميزها عن حالة تجسرد الاسم من التاء . فممكننا على هذا أن نسميها (التاء الزائدة)

ثانيا : وجدت التاء لنفسها بعض الوظائف تؤديها في بعض الحالات ، من ذلك أنها تغير معاني بعض الألفاظ مثل : الظهير والهاجر والجر . فهذه الألفاظ تكتسب معاني جديدة ليست لها أية علاقة بمعانيها الأصلية حين تلتحق بها التاء فتصبح : المهاجرة والظهيرية والجرة . فهذه قد يجوز تسميتها (تاء التغيير).

ثالثا : صارت التاء تختلق معنى لبعض الألفاظ التي لا معنى لها . وبمعبر آخر ان التاء صارت جزءا مئما لبعض الأسماء بحيث تصبح لا معنى لها إذا

حذفت التاء منها ، مثل : الامسية والبكرة والرنة والبورة - فلا معنى للألفاظ الامسي والبكر والريه والبور . أي ان التاء هنا قد التصقت ببناء الكلمة فأصبحت جزءا من نسيجها كحروفها الأصلية . وهذه يصح ان نسميها (التاء اللازمة) .

رابعا : صارت التاء أداة لتكوين بعض المصادر كما في الفعلين: دحرج واستقام ، بمصدرهما: دحرجة واستقامة - وهي قاعدة قياسية لا حيد عنها ، أما في الفعل المضعف فان التاء وجوبية أحيانا في مثل : وصى توصية وعبا تمبنة .. وجوازية أحيانا في مثل : قدم تتدما أو تتديما ، وكرم تكريمة أو تكريما .. ومنوعة أحيانا كما في علم تعليما وكسر تكسيرا ، فلا يقال تعلمة وتكسرة . وهذه أجدر بأن تسمى (التاء المصدرية).

خامسا : صارت التاء تؤدي معنى الحرفة في مثل: الكهانة والسفارة والسدانة والعيافة - أي حرفة الكاهن والسفير والسادن والعائف . وهذه نسميها (تاء الحرفة) .

سادسا : صارت التاء تؤدي أيضا معنى توكيد الصفات في مثل : النسابة والدواقة والراوية . فإذا حذفنا التاء من هذه الصفات فقلنا النساب والذواق والراوي ، ضعفت قوة المعنى ، على حين أنه لا يجوز حذفها من بعض الصفات المؤكدة بها مثل الطلعة والهمزة واللمزة (بضم الأول وفتح الثاني في اللفظ الثالث) - أي الكثير التطلع والهماز واللماز ، فلا يقال فيها : الطلع والهمز واللمز ، وهذه التاء أجدر بأن تسمى (تاء التوكيد) . وهي تاء لازمة في نفس الوقت في الطلعة والهمزة واللمزة .

سابعاً : صارت التاء تدل على معنى الأمراد في بعض الأسماء كالشجرة والحمامة والسكة ، فإذا حذفنا من هذه الأسماء أمثالها صارت تدل على الجمع أي اسم الجنس : الشجر ، الحمام ، السمك ، ولا يمكن اعتبارها تاء تانيث حتى في الحمامة والسمكة وغيرها من الأحياء ، لأن الكثير من أمثال هذه الأسماء تطلق على الذكر والأنثى دون تمييز . وتتجلى وظيفة الأمراد على نحو أوضح في مصادر بعض الأفعال . فالنظرة هي النظر مرة واحدة ، والابتسامة والضربة والاكله هي الابتسام والضرب والاكل مرة واحدة . فهي إذن (تاء الأمراد) .

ثامنا : على العكس من هذا صارت التاء تعني الجمع في أسماء أخرى مثل : المعدناني والطحطاني

والضري واليماني والسياف والخيال . فقد جمعوا على مدنانية وتحطانية ومخرية ويمانية وسياحة وخيالة — أي بمجرد إضافة التاء الى الاسم المفرد دون تغيير في تركيب بنائه . على حين ان بعض الاسماء تتغير بنيتها اذا جمعت بالتاء مثل جمع الماضي والبازي على مشاة ويزاة ، وجمع للقائد والسائق على قيادة وساعة ، وجمع الضماني والمنذري على فسانسة ومناذرة ، وجمع الكاتب والفاعل على كتبة وعملة ، وجمع الدب والفيل على دببة وفيلة .

ومن الطريف ان التاء صارت اداة الجمع في بعض اللغات الآرية ايضا كالانجليزية والفرنسية والاسبانية ، لكن بعد ابدالها سينا (s) ، وابدال التاء سينا . موضوع له اهميته اللغوية الخاصة ، وقد اوضحناه في كتابنا الآنف الذكر ، والعدد المذكور من مجلة « اللسان العربي » .

هذا في الاسم ، غير ان معالية التاء في ميدان الجمع شملت الفعل ايضا ، كما في : تالت الازراب وتقول الرجال ، فالتاء هنا تعني الجمع لا التانيث كما توهم النحاة ، بدليل ان التاء في تولنا (انفضت الناس) تحل محل واو الجمع في تولنا (الناس انفضوا) ، وانها في تولنا : (تفعل الرجال) تعمل عمل السواو والنون في تولنا (الرجال يفعلون) . وهذه التاء ما هي الا (تاء الجمع) .

تاسعا : واخيرا ناتي الى تاء النحويين ، أي التاء التي تدل على التانيث في اسما بني الانسان والحيوان أي الكائنات المنقسمة الى اناث وفكور مثل : امرأة وهرة ونمرة وسعيدة وعاقلة — تانيثا لمره وهر ونمر وسميد ومائل . وهي نفس التاء الملحقة بالفعل الماضي في تولهم : جاءت وذهبت — تانيثا لتولهم : جاء وذهب

وكانت التاء الملحقة بالاسماء تنطق صريحة فيما نعتقد حتى عند الوقف عليها في آخر الكلام كما هي الحال في الفعل الماضي (فعلت هي) . وما زال بعض العرب على ذلك أي ينطقون تاء التانيث في الاسماء حتى عند الوقوف عليها فيقولون حين يقرأون في الفصحى : الشجاعت والحرارت والانسانيت — وهي احدى اللهجات في لبنان . ومثل ذلك يفعل الاتراك والدرس في الالفاظ العربية الثالثة المستعملة في لغتيهما مثل : محبت امانت ، سلطنت ، انسانيت ، ملت .

وقد نطق بعض العرب اسماؤا الاناث بعد الفتحة قبل التاء ، ولا يزال على ذلك بعضهم كالمصريين في نطق ثريات وعنايات (اسم علم للانثى) ، ومع الزمن تخصصت هذه الصيغة الجديدة لدى الامريين بجمع المؤنث السالم ، مثل جيلات وراحيات وفائيات .

في اللاتينية :

وبعض العرب المعاصرين ينطقون تاء التانيث في لغاتهم الدارجة في بعض الاسماء ويهملونها في بعض ، كالمراقبين الذين ينطقونها في مثل : المساوات والحيات والشريت ، ويهملون نطقها في مثل : الحرية والتربية والصلاة .

واهمال نطق التاء في بعض الالفاظ منحدر من اصل عربي عريق لئما يظهر ، منشؤه ان بعض الامريين صاروا يستقونها في الاسم عند الوقف عليها في آخر الكلام فقط — كما هي الحال في الفصحى التي يومنا . وبذلك زالت التاء وبقي منها اثر هو الهاء الساكنة ، ومن هنا صارت المعاجم العربية تسميها (الهاء) بدل (التاء) . والواقع انها ليست هاءا بالمعنى الصحيح لئى على الاغلب تنطق مجرد فتحة على آخر الاسم . ويظهر ان بعض اللهجات القديمت اتخذت ذلك قاعدة عامة لها حتى عند وقوع التاء في داخل الجملة ، وقد بقيت هذه القاعدة في بعض اللغات الآرية كالاتينية والاطالية ، ففي اللاتينية يقال : filia (بنت) ، و amica (صديقة) ، و lupa (ذئبة) — تانيثا لتولهم filius و amicus و lupus . وهذه المؤنثات الثلاث توجد بنفسها في الايطالية — غير ان البنث تكتب filia (وتنطق filia ايضا) . اما مذكراتها في الايطالية فهي : figlio و

amico و lupo

واما في الفرنسية فان التاء تنطق صريحة في الالفاظ المؤنثة بها مثل toutes (جميع) ، للمؤنث (و cette (هذه) و coite (هادئة) — ومذكراتها tous و ce و coi يضاف الى ذلك في الفرنسية ان تصغير الاناث ايضا يتم بالحاق التاء في مثل : table (مائدة) و casse (صندوق) و française (فرنسية) — وتصغيرها : tablette و francette

ونأتي الآن الى تلك القاعدة الشذوية التي حيرت الالهام واعتبرت من بدوات اللغة العربية ونزواتها البوهيمية ، وهي قاعدة تانيث العدد (من الثلاثة الى العشرة) مع الذكور وتذكيره مع الاناث . ، لنتمهما على ضوء تحليل وظائف التاء . فما تفسيرها يا ترى؟

مفتاح هذا اللغز هو التفريق بين وظيفتي الجمع والتانيث . فقبل كل شيء يجب ان نعترف بان التاء في (الثلاثة) وأخواتها إنما هي تاء جمع لا تاء تانيث، فحين تال أجدادنا البداية في عهد جاهلي سحيق : سبمة نمرسان ، لم يخطر لهم أن يؤنثوا النمرسان مثلما لم يخطر لهم أن يؤنثوا اليمانيين والغازين والخيالين حين سموهم : يمانية وغزاة وخيالة .

أما في حالة عد الاناث فقد استشكلوا اجتساع التامين — تاء جمع العدد وتاء تانيث المعدد — في مثل (خمسة بقران) فاستطوا احدى التامين ، تخليفا . ولقد كان التطور اللغوي منطوقا جدا هذه المرة إذ أسقط تاء الجمع ، لا تاء التانيث ، لان معنى الجمع مفهوم بذاته في اسم العدد . أما لو أنهم أسقطوا تاء التانيث من البقرات والفتيات والوالدات لتغير معنى التانيث الذي اراده القائل ، فذلك امتنعوا منه .

وحذف تاء الجمع من المعدد ينطبق كذلك على جميع أسماء الاخلاء (الجمادات) المنتهية بالتاء كالتخيلات والهضبات والجففات ، ثم سرى ذلك على جمع أسماء الاخلاء المؤنثة ، ولو لم تكن منتهية بالتاء ، كالعصبي والدور والمؤوس والحروب .

هذا التفسير يؤيده لنا أنهم وازنوا — لفرض التخفيف أيضا — بين التامين — وكلتاها للجمع — في الاعداد المعشرة ، فصاروا اذا نطقوا التاء في احد شطري العدد استطوها من الآخر ، فقالوا : خمسة عشر حصانا وخمس عشرة نمرسا ، أي أنهم استعملوا تاء واحدة لكل من الذكر والمؤنث في كل من الحالتين .

لم يكن فرض القوم اذن تانيث الرجال ولا تذكير النساء ترضية لغزوز المرأة واعتراها ببأسها .

صلاة القول ان التاء وردت في معان مختلفة متعددة متميزة ذكرنا ما يحضرنا منها هنا باجمال ، ولا ندري ان كنا قد اغفلنا بعض حالاتها المهمة ، لكننا نتوقع على كل حال ان المستقبل سينتج بحونا منفصلة في هذا الموضوع بعد التشبع الطويل والاستقراء الشامل، وما نرجو لحدیثنا هذا السريع الا أن يكون خميرة لذلك المستقبل .

ويكفينا الآن ما تقدم بنا من مظاهر التاء التي سببناها بحسب وظائفها : التاء الزائدة ، وتاء التغيير، والتاء اللازمة ، والتاء المصدرية ، وتاء العرمة ، وتاء التوكيد ، وتاء الامراء ، وتاء الجمع . وأخيرا تاء التانيث . افليس من العجب العجاب أن النحاة المشهورين بتدقيقاتهم المبالغ فيها في بعض التوافه ، لم يميزوا بين حالات التاء المختلفة هذه بل احتطبوها جميعا ، خبط عشواء ، وكدسوها تحت اسم تاء التانيث ؟

وقبل ان نمرغ من حديث التاء وننتقل الى مظهر آخر من مظاهر التانيث في العربية يجدر بنا ان نلاحظ أن الاعتباطات التطورية قد عملت عملها في خلط وظائف التاء بعضها ببعض شأنها في مختلف التطورات اللغوية. أي اننا نجد للتاء أكثر من وظيفة واحدة في الكلمة الواحدة أحيانا ، مثل : تعمل أنت وتعمل هي ، تعملان أنتما وتعملان هما الغائبتان ، أتبلت الجارية وأتبلت الفرسان . ومثل ذلك: المرأة العدنانية والعرب العدنانية . بل قد تجتمع في الكلمة الواحدة ثلاث وظائف مثل (النسابة) وهي تمنى المرأة النسابة أو الرجل النساب أو الرجال النسابين . وشبهه بذلك (السفارة) التي اكتسبت الآن معنى حديثا بالإضافة الى معناها القديم — فقد صارت السفارة تطلق على المؤسسة الرسمية التي يرأسها السفير .

غير أن هذا الاختلاط في المعاني لا يرفع الملامة من النحويين الذين لم يفهموا شيئا من نشاطات التاء أصلا ، فقد كان عليهم — جزاهم الله رفعا ونصبيا ووقاهم الكسر والجر — أن يميزوا بين بعضها وبعضها ويسموا كلا منها باسمه كما ميزوا مثلا بين حالات النصب الكثيرة في الاسماء وسموا كلا منها باسمه .

هو وهي :

هذا جانب من حكاية التانيث ، فلننتقل الآن الى الجانب الآخر منها لنتحسس ابعاده في ضمير الغائب (هو) وتطوراتها .

ان تانيث الاسم يعرف من صيغته مثل : جبيلة وذلفاء وعطشى ، او من معناه مثل : مرضع وظئر وحامل ، او من الضمير الدال عليه مثل : هي ، هن .

والذي نعتقده ان، العرب كانوا اول الامر يستعملون ضمير (هو) 'لدلالة على الذكر والانثى والخلو جبيما - انسانا وحيوانا وجمادا .. وما زال الامر على ذلك في الفارسية التي ينطق فيها هذا الضمير بصورته البدئية (او - نا) ، اي كما كان ينطقه العرب قبل ان يبدلوا همزته هاءا. نعتني ان العرب كانوا في يهودهم اللغوية الاولى يتولون : هو الرجل، هو المرأة ، هو الشمس ، هو القمر . ثم ظهرت فئة منهم نطقت (هو) بالكسر : (هي) بنفس المعنى . ثم اختلطت هذه الفئة من العرب بغيرها من اللغات العربية لصار المختلطون يقول بعضهم (هو) وبعضهم (هي) ، ثم نشأ منها جيل يستعمل كلا الضميرين بمعنى واحد . وما يدل على ان الضمير (هي) كان يستعمل اولا للذكر انه ما يزال كذلك في الانكليزية بنفس النطق (هي : he) . كذلك اطلق الساميون القدامى في ارض بابل ضمير (هي) - قبل ابدال همزته هاءا - بصيغة (ايا - Ea) على الاله الذكر (ماء القمر)

وبمرور الزمن تخصصت في العربية صيغة (هو) بالذكر وصيغة (هي) بالمؤنث . وتظهر (هي) بمعنى التانيث في اللاتينية (ايا : ea) اي نفس اسم الاله (ماء القمر) .

ومثل هذا التخصص بالوف في التطور اللغوي حين تظهر لفظتان بمعنى واحد مع وجود معنى آخر لا لفظ له . فالمعادة ان المعنى المحتاج الى لفظ يعبر به من وجوده يختطف احد اللغتين المترادفين . وهكذا اختطف معنى التانيث (هي) واستأثر بها لنفسه .

نعمندئذ تماثمت نواحي التانيث والتذكير في العربية . ذلك بان الجماد كذي الروح لا يد من الإشارة اليه بضمير ما . وقد كان يقال للجماد (هو)

و (هي) دون تمييز عندما كان معنى الكلمتين واحدا ، اي هاما لثلاثة اصناف : الذكور ، والاناث ، والاخلاء . وهكذا صار بعضهم يقول : هو الروح وهو العنق وهو السكين وهو الطريق وهو السبيل .. وبعضهم يقول : هي الروح وهي العنق وهي السكين وهي الطريق وهي السبيل ، اي انهم اضطروا الى تذكير الجماد الخلو او تانيثه لانهم لم يجدوا ضميرا ثالثا يخصصه به كما خص الانكليز مثلا ضمير it بالخلو الغائب المبرد (لكنهم استعملوا نفس الضمائر للمذكر والمؤنث والخلو في الحالات الاخرى اي في حالات الخطاب والجمع) . ومع الزمن استقر التانيث في العربية لبعض الاغلاء كالنار والحرب والدار، واستقر التذكير لبعضها كالجبل والنهر والليل والنهار ، وظل بعضها الآخر هائما مترددا بين الحالين اي يؤنث ويذكر دون تمييز كالروح والعنق والسكين ..

من جهة اخرى نجد ان التاء ايضا قد تخصصت بالتانيث في مثل الوالدة والمرأة والسحابة والجنية ، ومن هنا صارت المادة ان تعامل كل اسماء الاغلاء المنتهية بالتاء بمعاملة المؤنث وكانها توهم قدامى العرب - كما توهم النحاة من بعدهم - ان تاء البانة والركوة والخيبة والرابية ايضا تعنى التانيث فقالوا : هي البانة وهي الركوة وهي الخيبة .

وبتعبير آخر ان التانيث (الحقيقي) قد تعامل فيه ضمير (هي) في مثل هي الاتان ، مع تاء التانيث في مثل الضئبة والفتاة ، نصارت (هي) تستعمل كتعاودة هامة مع اسماء الاناث سواء اكانت منتهية بالتاء ام لم تكن ، ومع اسماء الاغلاء المنتهية بالتاء . وقد هوملت هذه الاسماء بمعاملة الاناث في مختلف حالات الكلام ، نصاروا يقولون : هي الاتان وهي الشمعة وهي الغابات .

اما ما يدل على الذكر والانثى من الاسماء فيسر التانية مثل الفرس فيؤنث اذا تصدوا الانثى ويذكر اذا تصدوا الذكر .

واما الاسماء التي يجوز نطقها بالتاء وبدونها كالنجم والليله فقد انثوها مع التاء وذكرها بدونها فقالوا : هو النجم وهي النجمة وهذا الليل وهذه الليلة ، وذلك الماء وتلك الماءة . لكن الضدعة انثوها في كلتا الحالتين فقالوا : تلك الضدعة وهذه الضدع ، لانهم اعتبروها انثى في كلتا الحالتين ، اما ذكر الضدع نسوه العلجوم .

صفة التانيث أو استقر في الكلام تانيثه حتى في
الدرجات كالشمس والارض والحرب والنار ..

ونشهد القدامى العرب أنهم اصابوا حين انشوا
بعض الاسماء مع خلوها من علامة التانيث كالظنر
والمرضع والحامل ، لان هذه الصفات لا تكون الا في
الاناث ، ولو أنهم - العرب - شذوا حين ميموا صفة
الولادة على الرجل . ويبطل استفراب القاريء لقولنا
هذا اذا تذكر أنهم يسمون الاب (الوالد) مع استحالة
الولادة عليه . واضفاء صفة الولادة على الاب وهو
منها براء ليس كذلك من باب مجاملة المرأة او الخضوع
لسطوتها ، وانما جاء من اطلاق (الوالدين) على الام
الوالدة والاب ، كما اطلقوا (القرين) على الشمس
والقمر . وقد اطلقوا عليهما (الابوين) ايضا ، لكنهم
لم يسموا الوالدة ابة كما سمو الاب والدا .

الا ان ذلك المنطق - في الظنر والحامل والمرضع
- يطير هباء في مثل : الخادم والعاتر والرسول
والضيف وامثالها من الاسماء التي تطلق على الذكر
والانثى ، اي ان الصيغة في هذه الاسماء يمكن اعتبارها
خنثى ، وانما تكون ذكرا او انثى حين تميزها قرينة من
الضائير او غيرها حيث يقال : هي الخادم ، وهن
العاترات ، وتلك الرسول ، وهذه الضيف .. او : هو
الخادم وهم العاترون ..

تانيث الجموع :

والآن وقد رأينا التانيث في حالتيه ، اي نشوئه
من اضافة التاء اولا ومن استعمال ضمير (هي) ثانيا ،
نأتي الى ظاهرة اخرى منشؤها اختلاط معنى الجمع
بالتانيث ، في كلتا الحالتين .

ان معاملة بعض الاخلاء من الجمادات مغايمة
الاناث قد سرت هداها الى جموع تلك الجمادات ثم
الى جموع كل الجمادات ، فصارت تؤنث بالتاء ويشار
اليها بما يخص الانثى المفردة من الضائير واسماء
الاشارة والصفات ، ما تجتمع نماذجها في مثل قولك :
تلك هي (الجبال) السماء الزاهية التي تسر رائحتها .
مجميع اللفاظ في هذه العبارة خاصة بالانثى مع انها
تدل على الجبال التي مفردتها (الجبل) مذكر .

واذا كانت حياة الاستقرار والاجتماع في صعيد
قد أدت الى ثبوت القواعد اللغوية .، مثل التانيث
بالمفتحة كتعامدة عامة في اللاتينية ، فان حياة النقلة في
العربية وتكرار امتراق أهلها واجتماعهم على غير نظام
قد جعل من العربية مختبرا لغويا تقع فيه تجارب لغوية
كثيرة التنوع والتمديد دائمة التفاعل والتخضض
والتولد . (وقد استمرت العربية تصدر نماذج منها الى
الخارج ، لغات ولهجات ، على السنة الآريين والحاميين
والساميين ، منذ سحيق العصور) .

وبنتيجة ذلك التفاعل والتخضض والتولد في العربية
صار بعض القبائل يؤنث بعض أسماء الاخلاء كما
رأينا ، وبعض القبائل يذكرها ، وبعضهم يؤنثها
ويذكرها . فلماذا اختاف اللغويون فيما يؤنثون ويذكرون
من أسماء الجمادات لان بعضهم يروي عن هذه
الطائفة وبعضهم عن تلك .

وقد أخذ المحدثون من معاصرينا يميلون الى
اعتبار (هو) ضميرا عاما للتذكير والتجريد من
المنسل (أ) معا ، مثل اليوم من يقولون (هي الطريق)
وأقل منهم من يقولون (هي السوق) فيما عدا قولهم :
السوق السوداء والسوق المشتركة . واما كلمة (السلم)
فلا نظن اننا ترائناها مؤنثة لاحد من المحدثين ولا حتى
المتنطسين منهم . واما (الرمح والغول) فلا نذكر انهما
مرا بنا شخصا مؤنثين في شعر او نثر حديث ولا تديم ،
بالرغم من ان اللغويين ادرجوها ضمن الاسماء
المؤنثة .

وفي اللهجة المصرية يؤنثون الامضاء والهناء مثلا
وينطقونها الامضة والهنة لانتهائهما بالمفتحة ، وفي
اللهجة المغربية يؤنثون الزيت لانتهائه بالتاء . وبعض
المراطين يؤنثون الرأس والباب والبطن ، بل ان بعض
ضعاف الكتاب من معاصرينا يفعلون ذلك ايضا ، وقد
وجدناه حتى عند ذوي الاسماء الامامية (اي التي
طبقت شهرتها الاماق) .

هذه البلبلة التي كانت شغلا شاعرا للغويين
القدامى ، هي التي حدث ببعضهم الى ان يقول بجواز
التانيث والتذكير في جميع أسماء الجمادات التي لا تدل
صيغتها على التانيث . واصوب من هذا هو الاتجاه
الذي ينتحيه التطور في هذا الجيل كالذي نوهنا به ،
اي تغليب التذكير على الاسماء الخلوة ، الا ما ورد في

(1) نعصد بالمنسل - زنة المبرد - آلة التناسل للذكر والانثى .

وتعامل الاخلاء احيانا بمعاملة جمع المؤنث السالم
يقال « انهن عصور مطاولات ودهور داهرات » .

ماذا أضفنا الى هذا جموع المؤنثات الحقيقية
من بني الانسان والحيوان علاوة على بعض أسماء
الذكور التي تجمع بالتاء كاليمانية والخيالة ، وتقول
الرجال وتعمل - مما ظنوه تائبا - أتضح لنا لماذا
تغلب التائيب على أكثر الجموع ، وعرفنا لماذا قال
شعروا النحاة :

ان تومي تجمعوها ويقتلي تحدثوا
لا أبالي بجمعهم كل جمع مؤنثا

وما سمينا شعورا لغثاة شعره لكن لانه رعم
بالاضافة الى ذلك ان (كل جمع) مؤنث ، متجاهلا
جموع الذكور مثل : هم الرجال ، نملوا ، ويعملون ،
وماعلون . ولو قد قال بدلا من ذلك « رب جمع مؤنث »
لاحسن وأصاب ، بمعنى أن (رب) للتكثير لا للتليل .

فهذا فيما نظن موجز حكاية هذا التائيب الفوضوي
الذي بلبل بال اللغويين والنحويين ، قديما وحديثا ،
من شرقيين ومستشرقين - المسؤول في احدائه
ضمير (هي) الذي خدع العرب الاتدمين بمعنييه
للتذكير والتائيب ، وشريكته في الجرم (التاء) التي
خدعت العرب الاتدمين والنحاة من بعدهم بمعانيها
الكثيرة المتشابهة .